منظمة التحرير الفلسطينية

وحدة وطنية تعبئة قومية تحرير

مركز الأبحاث الفلسطيني

غزة والحرب.. محاولة لتدوين الألم

2025

تأسس مركز الأبحاث الفلسطيني في عام 1965 بمدينة بيروت، ليكون أول منصة فلسطينية رسمية مكرسة لاستدامة الذاكرة الفلسطينية وتوثيق سيرتها، فضلاً عن إنتاج الدراسات التي تسهم في تشكيل السياسات، ودعم حقوق الشعب الفلسطيني على المستويين الوطني والدولي

جاءت نشأة المركز في سياق التحولات الكبرى التي أدت إلى الشتات، وتعرض القضية الفلسطينية لمحاولات طمس الهوية، خاصة بعد نكبة 1948، مما أوجب بناء صرح علمي مستقل يرد الاعتبار للحقيقة التاريخية ويقود الجهود البحثية لتحقيق المصلحة الوطنية.

يضطلع المركز بتقديم أبحاث علمية متماسكة، تستند إلى أدوات منهجية دقيقة، تسهم في تمكين صناع السياسات، والإعلاميين، والأوساط الأكاديمية، والمؤسسات الحقوقية من بناء رؤى متكاملة، تستشرف المستقبل، وتضع التوصيات العملية

وتقوم رسالته على إرساء أدوات تحليلية واستشرافية متطورة، تعتمد على فهم معمق للتحديات، وتقديم رؤى بديلة قائمة على البيانات الدقيقة، والرصد المستمر للتحولات المحلية والإقليمية والدولية

مركز الأبحاث الفلسطيني

القدس- فلسطين

تلفاكس :9702966228+

E-MAIL: INFO@PRC.PS

HTTP://WWW.PRC.PS

PALESTINE RESEARCH CENTER

AL QUDS - PALESTINE

TELFAX: +9702966228

E-MAIL: INFO@PRC.PS

HTTP://WWW.PRC.PS

© حقوق الطباعة والنشر محفوظة

2025

غزة والحرب.. محاولة لتدوين الألم

بسام حسن سعيد[1]*

في فجرٍ رماديٍّ، كانت المدينة تستيقظ على صوت المآذنِ الممتزجِ برائحةِ البارود. غزةُ ليست مجردَ جغرافيا، إنها حكايةٌ مكتوبةٌ بالدمعِ والحجرِ، بالنارِ والزهر. الشوارعُ المهدَّمةُ تحملُ ذاكرةَ الأقدامِ الصغيرةِ التي ركضت يوماً بين أزقّتِها، والأمهاتِ اللواتي خَبَّأنَ وجعَهُنَّ خلفَ جدرانٍ مهدَّمة، وأصواتِ المؤذنينَ التي تتحدَّى صمتَ الليل.

غزةُ ليست أجملَ المدنِ، كما قال درويش، لكنها المدينةُ التي حافظت على كثيرٍ من الحلمِ الفلسطينيِّ بعد النكبة. ظلَّتْ غزةُ تقول إنها ليست فلسطينَ، بل هي ما تبقَّى من الوطن. لذلك نَذَرتْ نفسَها لكي يظلَّ الفلسطينيُّ حاضراً ولا يزول. فهي آخرُ نقطةٍ على ذاتِ الساحلِ الذي يحملُ رائحةَ البحرِ في حيفا وعكا ويافا.

ما أسهلَ أنْ نصفَ الحياةَ في المدنِ، وما أصعبَ أنْ نَسجُنَ الموتَ في صفحات. هذا ما يجعلُ غزةَ عصيَّةً على الوصف. فالموتُ زائرُها المزمن. إلا أنَّ غزةَ بعد السابعِ من أكتوبر 2023 لم تَعُدْ غزةَ التي نعرفها. فالمشاهدُ الجديدةُ والواقعُ الجديدُ يجعلانك تشاهدُ وتحسُّ وتسمعُ أشياءَ لم يَشْعرْ بها أحدٌ غيرُك عبرَ التاريخ.

هل شاهدَ أحدُكم بلداً تتحركُ بناسِها وشوارعِها وأنفاسِها ومبانيها وحكاياتِها، وهي ثابتةٌ في مكانِها؟! كلُّ سكانِ الشمالِ في غزةَ أصبحوا يسكنونَ في الجنوبِ، يتجوَّلونَ في السوقِ. الطاقةُ الجامحةُ والمتأهِّبةُ المسيطِرَةُ على المكانِ تجعلك تبكي من شدَّةِ الشعورِ بحجمِ المصيبةِ والمعاناةِ والوجعِ والقهرِ الذي تعرَّضَ له الجميع.

قلَّما تشاهدُ إنساناً يقفُ ثابتاً في مكانِه؛ هناك حركةٌ لا معنى لها عندَ الجميع تقريباً. جاءوا من الشمال، من حواري وأزقّةِ جباليا ومخيَّمِها، ومخيَّمِ الشاطئ، وبيتِ حانون، وبيتِ لاهيا، والشجاعيَّة، والرمال، وحَيِّ الشيخ رضوان، وغيرها من الأحياء. جاءوا وخرجوا قسراً وقهراً، حينما أمرَ الناطقُ باسمِ جيشِ الاحتلالِ، في الثالثَ عشرَ من أكتوبر/ تشرين الأول 2023، بإخلاءِ جميعِ المدنيينَ من شمالِ القطاعِ إلى المنطقةِ الواقعةِ جنوبَ وادي غزة، وأعطى السكانَ مهلةً قدرُها 24 ساعةً للنزوحِ والإخلاءِ. لم يكنْ صعباً على جيشِ الاحتلالِ غزوُ فضاءاتِ غزةَ الضيقة، فخرجَ من خرجَ، وبقي من بقي لأسبابٍ مختلفة؛ منهم من بقي للتحدي والصمودِ، ومنهم من بقي لعدمِ وجودِ أقاربَ له في الجنوب، وغيرها من الأسباب.

ومن خلال هذا المشهدِ الكارثيِّ، يمكنُ ملاحظةُ أنَّ هناك عائلاتٍ «محظوظةً» استطاعت الهربَ قبل تسويةِ البيتِ بالأرض، وهناك عائلاتٌ «محظوظةٌ» أيضاً لأنَّ الاحتلالَ لم يقتلْ أحداً من أبنائها. وهناك من هو «محظوظٌ» لأنَّه وجد جثمانَ أخيه سليماً، وهناك من هو «محظوظٌ» أيضاً لأنَّ الكلابَ الضالَّةَ لم تنهشْ جثمانَ ابنِ عمِّه، لأنَّه كان مدفوناً تحتَ قطعِ باطونٍ ضخمة.

وآخرُ «محظوظٌ» لأنَّه وجد جثمانَ أخيه كاملاً؛ لم تُقطَعْ رأسُه أو ساقُه أو ذراعُه، بل ولم يتحلَّلْ لأنَّ الطقسَ كان بارداً حينَ قُتل. وهناك من هو «محظوظٌ» لأنَّه وجدَ مكاناً يدفنُ فيه والدَه، مع أنَّ المشيعينَ كان عددُهم لا يتجاوزُ أربعةَ أشخاص. وهناك من هو «محظوظٌ» لأنَّه نزحَ إلى الجنوب، رغمَ الجوعِ الذي كابده، إلَّا أنَّه لم يأكلْ علفَ الحيواناتِ ولا العشبَ وأوراقَ الأشجار، مثلما فعلَ من بقي من سكانِ شمالِ القطاع. وهناك من هو «محظوظٌ» لأنَّه استطاع القضاءَ على القملِ الذي غزا شعرَ الأطفالِ في النزوحِ، بسببِ شُحِّ المياه.

---

١ * باحث وأكاديمي متخصص في علم الاجتماع السياسي – فلسطين، قطاع غزة.

سيكولوجية النزوح

«ما أقسى رؤيةَ البشرِ في لحظاتِ انكسارِهم! إذلالُ البشرِ امتهانٌ لكرامتِهم، وانتهاكٌ لحرماتِهم. حجمُ المأساةِ كبيرٌ، وهو أمرٌ يدفعُ الروحَ إلى الانكسار. كانوا يواسونَ بعضَهم بعضاً، وكلُّهم بحاجةٍ إلى مَن يُواسيهم».

لم أتخيَّل يوماً أنَّ كوابيسَ الواقعِ أسوأ من كوابيسِ الأحلام، وأنَّني سأشاهدُ خياماً تُنصبُ على رصيفِ مدينةِ ديرِ البلحِ بمحاذاةِ المقابرِ في مشهدٍ كئيب.

ديرُ البلحِ، التي كان أهلُ غزةَ يتندَّرونَ بأنَّها المدينةُ الصغيرةُ التي تنامُ بعد صلاةِ العشاءِ مباشرةً، أصبحت مليئةً بالضوضاءِ والفوضى والزحام، تعجُّ بالجماهيرِ الغفيرةِ النازحةِ البائسةِ، التي جاءت من شمالِ القطاعِ إلى هذه المدينةِ الصغيرةِ المطلَّةِ على شاطئ البحرِ المتوسط. حُشِرَ بين أزقتها وشوارعِها ومدارسِها وبين مبانيها ومواصيها ما يقاربُ مليونَ فلسطينيٍّ، نزحوا من كافَّةِ أرجاءِ قطاعِ غزة، من الشمالِ إلى الجنوبِ ثمَّ إلى الوسط، هرباً من أتونِ الحربِ وويلاتِ الإبادةِ التي نعيشُها.

كلُّ هذا الأمرِ جاء تنفيذاً لتعليماتِ جيشِ الاحتلال، الذي يتحكَّمُ بالنزوحِ والإخلاءِ كيفما يريدُ وحيثما يشاء. كلُّ ما عليه أن يفعلَهُ هو أن يحدِّدَ تلك الفضاءاتِ باللونِ الأحمرِ، ويطبعها على ورقةٍ، ليلقيَ بها في مهبِّ الريح، فيُصبحَ بعدها الغزِّيُّ في مرمى القذائفِ وهدفاً للطائرات.

بعد تلقِّي إنذارِ النزوح، تبدأُ العائلةُ بتجميعِ كلِّ ما تستطيعُ حملَهُ على سيارةٍ أو «توك توك» أو عربةِ حصانٍ، لتنقلها من مكانِ سكنِها وبيتِها وملاذِها الأولِ إلى مكانٍ لا تعرفُ إلى أينَ ستذهبُ فيه. تجمعُ كلَّ ما تستطيعُ جمعَهُ من ملابسَ وأمتعةٍ وفُرُش، وربما تعلَّمَ الناسُ، نظراً لكثرةِ النزوحِ من الشمالِ إلى الجنوب، أن يأخذوا معهم ملابسَهم وأغطيتَهم الثقيلةَ التي تَقيهم بردَ الشتاءِ، رغمَ أنَّ النزوحَ الأولَ كان في أواخرِ فصلِ الصيف.

وفي مشهدٍ مؤثِّر، يُحدِّثُ أحدُ النازحينَ صديقَهُ عندَ النزوحِ قائلاً: «لا تنسَ أنْ تجلسَ في كلِّ ركنٍ من منزلك، لأنَّك لا تعلمُ هل ستعودُ إليهِ لتجدَهُ صامداً، أم سيكونُ تحتَ الأرض؟ حاول أن تحتضنَ كلَّ زاويةٍ فيه، وتحدَّثْ معها وكأنَّك تحدِّثُ حبيبةَ قلبِكَ للمرَّةِ الأخيرة، قبلَ وضعِها في باطنِ الأرضِ كالموتى! ولا تنسَ أيضاً اصطحابَ قطَّتِكَ معكَ كي لا تموتَ جوعاً وعطشاً، وكذلك لا تنسَ أنْ تطلقَ سراحَ الحمامِ والدجاجِ والعصافيرِ من أقفاصِها». حينَ تخرجُ من البيتِ، تبدأُ الدموعُ بالانهمارِ.. لماذا؟ وكيف؟ وإلى أينَ المسيرُ؟ والأرضُ ضاقت بما رحُبَت! لا إجابةَ سوى المزيدِ من الدموع!

لا منطقَ في الشمالِ، ولا منطقَ في الجنوبِ. كلُّ المناطقِ في قطاعِ غزةَ غيرُ آمنةٍ وغيرُ إنسانية. ما يحدثُ في الشمالِ والجنوبِ تجاوزَ حدودَ العقلِ والتخيُّلِ والتحمُّل. لم يَعُدْ أحدٌ يملكُ ترفَ الاجتهادِ في البحثِ عن الأمان. الناسُ هنا فقط تجتهدُ في النزوحِ والهربِ، من خطرٍ مباشرٍ ومن الفقرِ إلى القهرِ، ومن العتمةِ إلى الخيمةِ، ومن البؤسِ إلى الإحباطِ والاكتئابِ واليأس!

ما حدثَ في غزةَ بعدَ السابعِ من أكتوبر 2023 كانَ مباغتاً كوقعِ الصاعقةِ، قلبَ كلَّ الموازين. فالبيوتُ لا رائحةَ ينشرُها لذيذُ الطعامِ، ولا ريحانٌ يتطاولُ ليبُثَّ الحياةَ في الشوارعِ المقتولة، حتى الحاراتُ تحوَّلتْ إلى جثثٍ هامدة.

الحياةُ في غزةَ خلالَ الحربِ ليستْ مجردَ معاناةٍ، بل هي صراعٌ يوميٌّ من أجلِ البقاء. ومعَ كلِّ هذهِ التحدياتِ، تبقى العائلاتُ الفلسطينيةُ صامدةً، متمسِّكةً بحقِّها في الحياةِ والحريةِ رغمَ كلِّ الظروف.

عائلات من النعيم إلى العراء

عائلاتٌ كانت تعيشُ في بحبوحةِ العيشِ، قهرتها الحربُ بعنفٍ، فتركتْ بيوتها وقصورها وأعمالها وملاذَها ومزارعَها وعشَّها الآمن. هناكَ من مُسِحَ من السجلِّ المدني، والبقيةُ فرَّتْ بأرواحِها من الهلاكِ والإبادةِ إلى اللا-مكان، حيثُ العراءُ وعُولُ الجوعِ، والعطشِ، والخوفِ، والبرد.

عائلاتٌ لم تكنْ تقُضُّ مضجعَها مفرداتُ الحياةِ الجديدة، كانتْ آمنةً تمتلكُ كلَّ شيءٍ رغمَ صعوبةِ الحياةِ قبلَ الإبادة، لكنها أصبحتْ لا تمتلكُ شيئاً إلَّا ما يسترُ حالَها وعلى الكفاف.

عائلاتٌ أُلقيتْ في الطُّرقاتِ والأرصفةِ والأزقَّةِ، في رقعةٍ من القماشِ تُسمَّى خيمةً أو خيبةً، تعبثُ بها الريحُ وجلدُها الشمس، تغرقُ في ظلامٍ دامسٍ يتسيَّدُهُ أزيزُ الرصاصِ، وقصفُ المدافعِ، والطائرُ الفولاذيُّ الذي يتربَّصُ بالجميع، وصوتُ «الزنانةِ» المزعج. أضفْ إلى ذلك مواءَ القططِ، ونباحَ الكلابِ، حياةٌ لم تَعُدْ حياة!

من دفء البيوت إلى قسوة النزوح

خرجتْ النساءُ والصبايا من بيوتِهنَّ الدافئةِ وسطَ الأهلِ والأحبةِ، ليجدْنَ أنفسَهنَّ فجأةً على قارعةِ الطريق، يفترشنَ الأرضَ ويلتحفنَ السماء، يتقاسمنَ الفراشَ معَ الإخوةِ والأخواتِ بغطاءٍ واحدٍ، مقيداتٍ يلتزمنَ بقوانينِ الحياةِ الجديدةِ.

كلُّ شيءٍ محسوبٌ وبموعدٍ محدَّدٍ: من مأكلٍ ومشربٍ وقضاءِ حاجة. أتقنتْ النساءُ فنَّ التعاملِ مع ثقافةِ الطوابيرِ والزحامِ: طابورُ المياهِ الحلوةِ والمالحة، طابورُ «التكيَّة» للحصولِ على الطعام، طابورُ المخابزِ للحصولِ على قوتِ يومِهم، حتى أصبحتْ ربطةُ الخبزِ في زمنِ الحربِ رمزاً للحبِّ والصبرِ والحياة. وتمثل ذلك في تقديمِ أحدِ الشبَّانِ لخطيبتِه هديةً عبارةً عن ربطةِ خبز!

وهناك طابورُ الغازِ، وطابورُ قضاءِ الحاجةِ الذي لا يتَّسعُ للجميع، لم تَعُدْ هناكَ خصوصيَّة، ولم تَعُدْ الفتاةُ تهتمُّ بشعرِها أو بنوعِ الشامبو أو المرطِّباتِ التي تعتني ببشرتِها؛ فالجميعُ سواءٌ في الحزنِ والمعاناة. إنْ حظيتْ كلَّ أسبوعٍ أو أكثرَ بجالونِ ماءٍ مالحٍ وزجاجةٍ صغيرةٍ من الماءِ الحلوِ للاغتسالِ، فهي محظوظةٌ، مع الإشارةِ إلى نظامِ التقنينِ المتَّبعِ.

نظراً لشُحِّ الواردِ وندرتِها، أصبح هناك تقنينٌ في كلِّ شيءٍ؛ تقنينٌ في الخبزِ، وتقنينٌ في الماءِ، وتقنينٌ في الغاز إنْ توفَّر، وإنْ لم يتوفَّر، يجبُ البحثُ عن الحطبِ وأوراقِ الكرتونِ. حياةٌ يحكمُها الجوعُ والخوفُ والبرد، والمُضحِكُ المُبكي أنَّ النساءَ لسنَ على ما اعتدنَ عليه من حياةٍ واهتمامٍ، فحياةُ النزوحِ تقتلُ الأنوثةَ، ورعايتُها محضُ هراءٍ!

عندما تسيرُ وسطَ المدينةِ أو بينَ الخيامِ، خاصَّةً في مدينةِ ديرِ البلح في المحافظةِ الوسطى، تجدُ آلافَ البشرِ يتزاحمونَ في الطرقاتِ والأسواق، جلُّهم جاء من الشمالِ والجنوبِ ومن رفح، التي احتضنتِ الجميعَ عندما طلبَ الناطقُ باسمِ جيشِ الاحتلالِ من أهلِ مدينةِ رفحَ مغادرتَها إلى المواصي، وخان يونس، والوسط.

شوارعُ المدينةِ والخيَّماتِ ممتلئةٌ بالحُفَرِ والمياهِ الآسنةِ، والخيامُ الفقيرةُ منتشرةٌ في كلِّ زاويةٍ. الشوارعُ لم تُصافحْها مكانسُ عمالِ النظافةِ منذُ فترةٍ ليست بالقصيرة، والبؤسُ أصبح العلامةَ الفارقةَ في هذه المدينةِ التي تضمُّ خيامَ النازحين. ليس غريباً أنْ تشاهدَ بعضَ النسوةِ يبحثْنَ في تلالِ القمامةِ عن شيءٍ ما قد يسدُّ جوعَهن! أماكنُ الإيواءِ في المدارس تزاحمتْ فيها الوجوهُ الشاحبةُ: أطفالٌ ونساءٌ وعجائزُ بلحىً غيرِ حليقةٍ، وشعرٌ أشعثُ، وعيونٌ زائغةٌ، وأطفالٌ حفاةٌ وأشباهُ عُراةٍ.

النزوح المتكرر

تأسيساً لما سبق، يمكنُ الإشارةُ إلى أنَّ هناكَ عائلاتٍ تنقَّلتْ ونزحتْ أكثرَ من عشرِ مرَّات، من بيتِ لاهيا في أقصى الشمال، وصولاً إلى رفح في أقصى الجنوب، مروراً بمخيَّماتِ الإيواءِ في الوسطِ والجنوب.

ومن المؤكَّدِ أنَّك ستقابلُ في المدارسِ أو أماكنِ الإيواءِ ثقافاتٍ وبيئاتٍ متنوِّعة، فالحياةُ في مراكزِ الإيواءِ، التي قد تكونُ خيمةً أو مجموعةَ خيامٍ أو مدرسةً تنامُ في إحدى عُرَفِها، تُكسِبُ الإنسانَ نضجاً ومعرفةً. حتماً ستقابلُ هناك المنافقَ، والكاذبَ، والمتسلِّطَ، والوصوليَّ، والفاجرَ، والأمينَ، والشهمَ، والمتسوِّلَ.

الظروفُ التي عاشها النازحونَ في مخيَّماتِ الإيواءِ كارثيَّةٌ، حيثُ تعاني هذه الأماكنُ من سوءِ النظافةِ، وانتشارِ مستنقعاتِ المجاري، وتراكمِ القمامةِ، وشظفِ العيشِ، وصعوبةِ الحياة.

إلَّا أنَّ الأمرَ لا يخلو من الأملِ والرجاءِ واليقينِ بأنَّ هذهِ الشِّدَّةَ، وهذهِ الإبادةَ، ستزول. وهذا نوعٌ من الصَّلابةِ النفسيَّةِ التي يتعلَّمُها الجميعُ في هذهِ المقتلةِ غيرِ المسبوقة!

المرأة في قلب المعركة

كان للمرأةِ دورٌ هامٌّ في هذه المحنةِ، فهي الأمُّ، والزوجةُ، والشقيقةُ، لمنِ استُشهِدَ، أو اعتُقِلَ، أو فُقِدَ، أو أُصيبَ، فتحمَّلتْ ما لا يُطاقُ في غيابِ الزوج.

خرجتْ بعضُ النساءِ للعملِ بائعاتٍ في الأسواقِ.

امتهنتْ أخرياتٌ مهنةَ الطَّهي، وصناعةَ المعجَّناتِ، وبيعَها.

تولَّتْ بعضُ النساءِ إحضارَ المياهِ، والبحثَ عن الأخشابِ للطهوِ.

تطوَّعتْ كثيراتٌ في المراكزِ الصحيَّةِ والجمعيَّاتِ الخيريَّةِ.

الحياة التي لم تَعُد كما كانت

لقد أثقلَ الحزنُ ملامحَ الشبابِ، وشابَتْ تضاريسُ وجوهِهم، فالرجالُ أصبحوا ظلالاً تتحرَّكُ بصمتٍ، والنساءُ يقطرنَ عرقاً تحتَ أشعَّةِ شمسِ حزيرانَ، وما يرتدينهُ على أبدانهنَّ ورؤوسِهنَّ طوالَ الوقتِ في عزِّ الحرب.

لم يخطرْ ببالِ أستاذِ الجامعةِ القادمِ من مخيَّمِ الشاطئ أنْ يركبَ «عربةَ كارو» ليجوبَ شوارعَ دير البلح بحثاً عن ربطةِ خبزٍ أو جالونِ ماء. وكذلك، لم يخطرْ ببالِ الطفلِ القادمِ من جباليا أنْ يتركَ مدرستَهُ ليجوبَ شوارعَ المخيَّمِ والأسواقِ بشعرٍ أشعثَ ووجهٍ مغبَّرٍ، حاملاً معهُ مناديلَ ورقيَّةً للبيع، أو أنْ يصطفَّ أمامَ التكيَّة للحصولِ على بعضِ الطعام.

وأيضاً، لم تتوقَّعِ المرأةُ القادمةُ من بيت حانون أنْ تجدَ نفسَها جالسةً في منتصفِ الجزيرةِ في دير البلح، تصنعُ الخبزَ في فرنٍ بدائيٍّ صنعتهُ كي تعيشَ بعيداً عن التسوُّل. وكذلك، لم يخطرْ ببالِ ابنِ الشجاعيَّة أنْ يدفنَ والدَهُ في إحدى مقابرِ خان يونسَ أو رفح، بدلاً من مقبرةِ العائلةِ في غزة، نظراً لاستحالةِ الوصولِ إليها.

والمدينةُ لم تَعُدْ كما كانت. فلم يخطرْ ببالِ سكانِ دير البلح أنْ تصبحَ مدينتُهم يوماً ما مركزَ القطاع، وأنْ يُصبحَ ميدانُ المدفعِ وشارعُ أبو عريف من أشهرِ شوارعِ غزة!

ماذا فعلتْ بنا الإبادة؟

في الحرب، هناك حروبٌ جانبيَّةٌ خفيه لا يراها روَّادُ الفضائيَّاتِ، لكن يعيشُها كلُّ من وجدَ نفسَه في قلبِ المعركة. هذه الحروبُ أو هذه النزاعاتُ لا تدورُ في ميادينِ القتالِ، بل خلفَ الجدرانِ، في البيوتِ، وفي خيامِ النازحينِ، وبينَ

الأسرِ التي اجتمعتْ رغماً عنها تحتَ سقفٍ واحدٍ.

إنَّها حروبٌ اجتماعيَّةٌ تحدثُ بينَ الإخوةِ والأخواتِ، بينَ الحمواتِ والسلفاتِ، بينَ الآباءِ والأبناءِ، بينَ الأقاربِ والجيران. في ظلِّ الفوضى، تتحوَّلُ هذه الاحتكاكاتُ إلى عنفٍ اجتماعيٍّ يضربُ النسيجَ الاجتماعيَّ في الخيامِ، والمدارسِ، وبيوتِ الإيواءِ، وحتى أمامَ «التكيَّات» التي تقدِّمُ المساعداتِ الغذائية.

هذه النزاعاتُ قد تكونُ طارئةً، سببُها الضغطُ النفسيُّ، والفقرُ، والقلقُ، وانعدامُ الأملِ، وضياعُ الأحلامِ التي بنتها العائلاتُ على مرِّ السنين. الحربُ وضعتِ الجميعَ تحتَ المجهرِ، وفضحتِ العاداتِ والسلوكيَّاتِ التي كانتْ مختبئةً خلفَ الاستقرارِ النسبيِّ، فجاءَ التجمُّعُ الهائلُ للناسِ في أماكنَ ضيِّقةٍ ليُحرِّكَ ما كانَ دفيناً.

يمكنُ القولُ إنَّ الإنسانَ بطبعِه الإنسانيِّ يشاركُ الآخرينَ في الفرحِ والحزنِ، كنوعٍ من المشاركةِ الوجدانيَّة، وهذا يُعتبَرُ نوعاً من الدَّعمِ النفسيِّ والتضامنِ، وهو جانبٌ إيجابيٌّ. إلَّا أنَّه قد يمتدُّ ويتحوَّلُ إلى جانبٍ سلبيٍّ، بحيثُ يُشاركُ البعضُ الآخرينَ في سلوكٍ يقومُ على السرقةِ، والاستغلالِ، والبلطجةِ، والتوحُّشِ، وامتهانِ التسوُّل.

وهذا ما تمَّت ملاحظتُهُ في أتونِ هذهِ المقتلةِ التي نعيشُها ونكتوي بنارِها، وكأنَّها عدوى أصابتْ الكثيرَ من ضعافِ النفوسِ والمستغلِّين لمعاناةِ الناس. ويمكن قراءة بعض الصور الحية لما صنعته بنا الإبادة على النحو التالي:

من التكاتف إلى الفوضى، في بدايةِ الحرب، كان التآزرُ والتكافلُ والاندفاعُ إلى فعلِ الخيرِ هو السلوكَ السائدَ بين الغالبيَّة، إلَّا أنَّه مع استمرارِ الحربِ وإطالةِ أمدِها، وسيادةِ الفوضى، وتكدُّسِ الجميعِ في منطقةٍ واحدةٍ بأعدادٍ مهولةٍ، وظهورِ ما يُعرفُ بـ «الإبهامِ الشخصيِّ»، ظهرتْ ثقافةُ القطيع، التي لا تأبهُ بقانونٍ أو عُرفٍ أو أخلاقٍ.

وهنا، أظهرتِ الحربُ أسوأَ ما في البشرِ، في ظلِّ غيابِ القانونِ، وتراجعِ المعاييرِ، وتآكلِ القيمِ، وازديادِ المعاناةِ، التي أنتجتِ «اللامبالاة». وهذا الأمرُ سهَّلَ للعازفينَ عن سلوكِ الفوضى مشاركةَ من استمزجَ هذا السلوكَ الفوضويَّ والتورُّطَ فيه.

الاستغلالُ في أسوأ صُوَره، بدأَ الاستغلالُ يظهرُ في أبشعِ صُوَرِه، حيثُ برزتْ ممارساتٌ، منها:

السرقةُ ونهبُ المالِ العامِّ والخاصِّ.

الاعتداءُ على المرافقِ العامَّةِ، وقطعُ الطرقِ، والنشلُ، والأنانيَّة.

انتشارُ الربا واستغلالُ حاجةِ الناسِ ماليّاً.

التفنُّنُ في احتكارِ السلعِ ورفعِ أسعارِها.

تراجعُ ثقافةِ التطوُّعِ والتكاتفِ الاجتماعيِّ.

فرضُ الإيجاراتِ الباهظةِ على النازحين، بدلاً من استضافتِهم تطوُّعاً.

ظهورُ العنفِ الاجتماعيِّ، ووقوعُ جرائمِ قتلٍ نتيجةَ الفوضى.

المالُ أصبحَ غايةً بحدِّ ذاتِهِ، في هذهِ الحربِ، لم يَعُدِ البعضُ يبحثُ عن المالِ كوسيلةٍ للنجاةِ، بل باتَ تكديسُ الأموالِ غايةً بحدِّ ذاتِها!

وهذا ما حصلَ عليهِ كثيرونَ بالفهلوةِ والاستغلالِ وتعاطي الربا، واستغلالِ معاناةِ الموظَّفينِ الذينَ فقدوا السيولةَ الماليَّةَ، ومن جيوبِ الفقراءِ والنازحينِ الذينَ فقدوا المأوى والمسكنَ ومصدرَ الرزق!

أما وسائلُ التنقُّلِ الجديدةُ في ظلِّ الحرب، نظراً لشحِّ البنزينِ وانعدامِ مصادرِ الطاقةِ، فقد لجأَ الناسُ إلى

استخدامِ عرباتِ الكارو التي جرَّها الخيولُ والحميرُ، وأصبحَ مشهدُ تنقُّلِ الفقيرِ والغنيِّ، والأستاذِ والطبيبِ، والصحفيِّ، والبنتِ، والعجوزِ، جميعِهم على عربةٍ يجرُّها حمارٌ أو حصانٌ أو توك توك، أمراً طبيعيّاً، في ظلِّ تراجُعِ ثقافةِ «الخجلِ والعيبِ»، حيثُ أصبحَ الجميعُ لا يعرفونَ الجميع.

كما لجأَ بعضُ الناسِ إلى استخدامِ زيتِ الطعامِ (السِّيرج) وقوداً للسياراتِ، نظراً لانعدامِ توفُّرِ البترولِ الخاصِّ بالمركبات.

البحثُ عن المالِ في ظلِّ انهيارِ النظامِ الماليِّ، بسببِ إغلاقِ البنوكِ، اضطرَّ الناسَ إلى البحثِ عن طرقٍ بديلةٍ للحصولِ على الراتبِ أو الأموالِ المُحوَّلةِ من الأقاربِ في الداخلِ والخارج. وتولَّى بعضُ التجَّارِ هذه المهمَّةَ، عبرَ «التطبيقِ البنكيِّ»، لكن نظَراً لشحِّ السيولةِ الماليَّةِ، كانوا يفرضونَ نسبةً ماليَّةً مرتفعةً، ما أثارَ استياءَ الكثيرينَ من جشعِ التجَّارِ، ولكنَّ البدائلَ كانت معدومةً!

أمراضٌ جديدةٌ وبيئةٌ كارثيَّةٌ، لم يَعُدْ أهلُ غزةَ معتادينَ على هذا المشهدِ من قبل؛ فقد بدأ القملُ يغزو رؤوسَ الكثيرينَ بسببِ نقصِ المياهِ، بالإضافةِ إلى ندرةِ وسائلِ التنظيفِ، وارتفاعِ أسعارِها، واختفائِها من الأسواق، مثل الشامبو، والصابون، وموادِ تنظيفِ الوجه، وفُرَشِ الأسنان. وربما أشيرُ هنا إلى موقفٍ حصلَ معي وأنا أتسوَّقُ، حيثُ إنَّني لم أسمعْ بمصطلح «الفلاية» إلَّا عندما كنتُ أشتري بعضَ الحاجياتِ من عندِ العطَّارِ. سمعتُ هذه الكلمةَ من طفلةٍ صغيرةٍ تسألُ البائعَ عنها، الذي أجابَها بأنَّ «الفلاياتِ نَفِدَتْ من البلد»!

والفلايةُ - لمن لا يعرفُها - هي المشطُ المخصَّصُ لتنظيفِ الرأسِ من القملِ والصِّيبانِ. هذه الكلمةُ أو هذا المصطلحُ اختفى من قاموسِنا منذُ عقودٍ، لكنَّه عادَ بقوَّةٍ إلى يوميَّاتِ الناسِ في غزة، مع ازديادِ شُحِّ المياهِ وقِلَّةِ الاستحمام.

كما تفشَّى البعوضُ والذبابُ بفعلِ تراكمِ النفاياتِ في الشوارعِ، إضافةً إلى انعدامِ الكهرباءِ، الذي أثَّرَ على إعادةِ تدويرِ الصرفِ الصحيِّ، ولم يقتصرِ الأمرُ على ذلك؛ فقد رصدَ الأطباءُ حالاتٍ لانتشارِ الجربِ، والحكِّ، والهرشِ، والدمامل لدى الأطفالِ بسببِ الحرارةِ العاليةِ.

وفي ظلِّ هذه الأوضاع، ظهرَ مئاتُ الأطفالِ الذين يعانونَ من هولِ الصدمةِ، وكوابيسَ مُفزعةٍ ليلاً، وحالاتِ التبولِ اللاإراديِّ، وعدمِ القدرةِ على الوقوفِ، والتلعثُمِ، والخوفِ من الآخرين. هؤلاءِ الأطفالُ قنابلُ موقوتةٌ في الغدِ إذا لم تُعالَجِ الآثارُ المدمِّرةُ التي خرجوا بها من هذهِ المحنةِ. لقد تحطَّمَ كلُّ شيءٍ، وتحوَّلَ الجميعُ إلى بقايا بشر!

العائلاتُ في خيامِ النزوح.. انهيارُ التوازنِ الأسريّ. في البيوتِ التي فُتِحَتْ للنازحين، وجدتْ كلُّ أسرةٍ نفسَها تعيشُ مع غرباءَ لم يكنْ بينهم أيُّ رابطٍ مسبقٍ.

في كلِّ خيمةٍ، أكثرُ من أسرةٍ واحدةٍ، والخلافاتُ أصبحتْ أمراً اعتياديّاً.

بينَ الإخوةِ والأخواتِ، بينَ الحمواتِ والسلفاتِ، بينَ الرجالِ والنساءِ، بينَ من يملكُ ومن لا يملكُ، بينَ البخيلِ والكريم.

النزوحُ القسريُّ فرَّقَ العائلاتِ، حيث وجدَ بعضُ الأفرادِ أنفسَهم في أماكنَ مختلفةٍ عن أقاربِهم، فضعفتْ شبكاتُ الدعمِ الاجتماعيِّ، وانهارتِ العلاقاتُ.

الأدوارُ الأسريَّةُ تغيَّرتْ، فبعدَ فقدانِ أحدِ الوالدينِ أو إصابتِه، اضطرَّ الأطفالُ والنساءُ إلى تحمُّلِ مسؤولياتٍ لم يكونوا مستعدِّينَ لها.

قاموسُ الحربِ.. مصطلحاتٌ جديدةٌ تُلخِّصُ المعاناة، كلُّ حربٍ تخلِّفُ وراءَها لغةً جديدةً، ومصطلحاتٍ لم تكنْ متداولةً من قبلُ، لكنَّها أصبحتْ جزءاً من الحياةِ اليوميَّةِ في غزة، تُستخدمُ في الحوارِ، في النداءِ، في البحثِ عن أيِّ شيءٍ يُبقي الإنسانَ على قيدِ الحياةِ. ومن أهمِّ المصطلحاتِ التي برزتْ خلالَ الحربِ:

«شادر» - قماشٌ يُستخدمُ لتغطيةِ الخيامِ أو لحجبِ الرؤيةِ.

«طابور» - الاصطفافُ الطويلُ للحصولِ على الماءِ، أو الطعامِ، أو المساعداتِ.

«خيمة» - البيتُ الجديدُ للنازحينَ، الذي لا يقيهِم بردَ الشتاءِ أو حرارةَ الشمس.

«عَبِّي مَيَّه» - نداءٌ للاستفادةِ من أيِّ فرصةٍ لملءِ جالونِ ماءٍ، حتى لو كانَ مالحاً.

«فِش شباشب» - تعبيرٌ يُشيرُ إلى نقصِ أبسطِ الاحتياجاتِ.

«اشحن البطارية» - استغلالُ أيِّ مصدرِ كهرباءِ متاحٍ قبلَ انقطاعِه.

«تطبيق بنكي - لا يوجد سيولة» - تعبيرٌ عن انهيارِ الخدماتِ الماليةِ، وصعوبةِ الوصولِ إلى الأموال.

«وين نروح؟» - السؤالُ الذي لا يملكُ أحدٌ إجابتَهُ، فكلُّ مكانٍ غيرُ آمنٍ.

«فِش منطقة آمنة» - واقعٌ أصبحَ يُقالُ دونَ حاجةٍ إلى تفسيرٍ.

«معلَّبات - تأمين طحين - حطب» - مفرداتُ الحياةِ الجديدةِ التي تضمنُ البقاءَ على قيدِ الحياة.

«مجزرة - محاصرين - مجاعة» - كلماتٌ تحوَّلتْ إلى عناوينَ يوميَّةٍ تنقلُ الواقعَ دونَ تزيينٍ.

«حزام ناري - مربع سكني» - مصطلحاتٌ عسكريَّةٌ تحدِّدُ مصيرَ المناطقِ، وتُحوِّلُها إلى رمادٍ.

«متى نروح؟» - سؤالٌ يتردَّدُ بلا إجابةٍ، تماماً مثلَ السؤالِ عن انتهاءِ الحرب.

«ظهرك.. وسِّع ظهرك» - عبارةٌ تُستخدمُ أثناءَ تدافُعِ النازحينَ في طوابيرِ المساعداتِ.

«فِش إرسال» - تعبيرٌ عن انقطاعِ الاتصالاتِ، وانقطاعِ الإنسانِ عن العالمِ الخارجيِّ.

«الحق الكارة - طوشة» - إشارةٌ إلى مشاجراتٍ تحدثُ في أماكنِ النزوحِ، حيثُ يضيقُ الصبرُ على الجميعِ.

«شهداء في الحارة» - عبارةٌ باتتْ تُقالُ عندَ فقدانِ الجيرانِ والأصدقاءِ بشكلٍ يوميٍّ.

«اتصل على الإسعاف» - نداءٌ متكرِّرٌ، لكنَّ الجوابَ غالباً يأتي بأنَّه «فِش إسعاف».

«الكارة» - تعبيرٌ يرمزُ إلى عربةِ الكارو التي باتتْ وسيلةَ النقلِ الوحيدةَ في شوارعِ الدمار.

«اللي مات ارتاح» - جملةٌ تُقالُ بأسى، تلخِّصُ حجمَ المأساةِ، عندما يصبحُ الموتُ راحةً من هذا الجحيم.

لماذا تراجعت القيم في المجتمع الفلسطيني؟

قد يقولُ قائلٌ: «هكذا يكونُ سلوكُ الناسِ في الحروبِ، عندَ غيابِ النظامِ والقانون». لكنَّ السؤالَ الأهمَّ هو: لماذا تراجعتِ القيمُ بهذهِ السرعةِ وبهذهِ القسوة؟

المجتمعُ الفلسطينيُّ كانَ معروفاً بتديُّنِهِ، وثقافتِهِ، وتماسكِ نسيجِهِ الاجتماعيِّ، واتحادِهِ في مواجهةِ المعاناةِ بحثاً عن الحريَّة. فكيفَ وصلَ الحالُ إلى هذا المستوى؟ هل أخطأَ علماءُ الاجتماعِ عندما قالوا إنَّ الشعوبَ تتضامنُ وتتوحَّدُ في وجهِ مآسي الحربِ؟ هل هذا الأمرُ طبيعيٌّ، أم أنَّنا صدَّقْنا أنفُسَنا عندما اعتقدْنا أنَّنا استثناءٌ؟ هذا موضوعٌ يحتاجُ إلى نقاشٍ مستفيضٍ للخروجِ من هذا الوضعِ «غيرِ الطبيعيِّ» إلى الوضعِ الطبيعيِّ.

إرادة الحياة والتحدي

رغمَ البؤسِ، والألمِ، والموتِ، إلَّا أنَّ إرادةَ الحياةِ كانت المحرِّكَ الأكبرَ للصُّمودِ وتحدِّي الواقعِ البائسِ. ومن مظاهرِ ذلك الزواج داخل الخيام، انتشارُ صالوناتِ الحلاقةِ في الخيامِ وعلى الأرصفةِ، وكذلك انتشارُ المختبراتِ الطبيَّةِ وعيادات الأسنان في الخيامِ ومراكزِ الإيواءِ، بالإضافةِ إلى الصيدلياتِ. رغمَ أنَّ الأدويةَ تُباعُ دونَ رقابةٍ، وتحتَ أشعَّةِ الشمسِ، إلَّا أنَّ هذا هو قانونُ الحياةِ في الحربِ، حيثُ يسودُ البحثُ عن الخلاصِ، وحُبُّ البقاءِ. كذلك، أُنشِئَتِ التكيَّاتُ التي تُوزِّعُ الطعامَ على النازحينَ، وانتشرت الطوابيرُ في كلِّ مكانٍ، كما ظهرتِ ظاهرةُ توزيعِ المياهِ الحُلوةِ والمالحة؛ فالمياهُ الحُلوةُ تُخصَّصُ للشربِ وإعدادِ الطعامِ، أمَّا المياهُ المالحةُ فتُستخدمُ للغَسلِ والاستحمامِ.

بدائلُ انقطاعِ الكهرباء ظهرتْ كذلك، إذْ تمَّ قطعُ الكهرباءِ منذُ اليومِ الأوَّلِ للحربِ، فلجأَ الأهالي إلى ألواحِ الطاقةِ الشمسيَّةِ، لتوفيرِ الكهرباءِ وشحنِ الأجهزةِ الكهربائيَّةِ والموبايلاتِ، كما خُصِّصَتْ نقاطٌ للشحنِ. كذلك، انتشرت طرقُ استخدامِ الإنترنت عبرَ بطاقاتٍ تُباعُ في الأسواقِ، وأصبحَ مشهدُ الناسِ الجالسينَ في الطُّرقاتِ وأمامَ المحلَّاتِ، مُنشغلينَ بهواتفِهم، يقرأونَ، ويتصفَّحونَ، ويتسوَّلونَ، ويتابعونَ الأخبارَ، ويتواصلونَ مع أهلِهم وأقاربِهم، ليطمئنُّوا عليهم، أمراً مألوفاً.

وكذلك، أُنشِئَتِ العشراتُ من المقاهي البسيطة، يرتادُها من يحتاجُ إلى الراحةِ أو البحث عن السجائر التي أصبحت نادرة وارتفع ثمنها بشكل قياسي، أو إلى التصفُّحِ، أو إلى لقاءِ قريبٍ جاءَ للزيارة. كما لا بدَّ من الإشارةِ إلى دورِ الجمعيَّاتِ الخيريَّةِ والمُبادرينَ، الذين تولَّوا رعايةَ النازحينِ وإمدادَهم بما تيسَّرَ من موادَّ غذائيَّةٍ وموادِّ تنظيفٍ، بالإضافةِ إلى إعدادِ ورشاتٍ للتثقيفِ والريادة.

ختاماً، الحياةُ في غزةَ خلالَ الحربِ ليستْ مجرَّدَ معاناةٍ، بل هي صراعٌ يوميٌّ من أجلِ البقاء. ومع كلِّ هذهِ التحدياتِ، تبقى العائلاتُ الفلسطينيَّةُ صامدةً، متمسِّكةً بحقِّها في الحياةِ والحرِّيَّة. رغمَ كلِّ الظروفِ، رغمَ الحصارِ، رغمَ الموتِ الذي يمرُّ في الشوارعِ كما يمرُّ النسيمُ في المدنِ الأخرى، ورغمَ القذائفِ التي تهبطُ كالمطرِ.

هناكَ، في عيونِ الأطفالِ، حلمٌ لا يُقصَف.

هناكَ، في الأزقَّةِ التي اختفتْ معالمُها، خطواتٌ تأبَى أن تتلاشى.

غزةُ ليستْ حكايةَ بكاءٍ، بل روايةُ مقاومةٍ، مدينةٌ تعيدُ كتابةَ نفسها، رغمَ كلِّ محاولاتِ المحوِ.

في المستقبلِ، ربما سيُعادُ بناءُ الشوارعِ، ستُضاءُ النوافذُ، وسيسيرُ العشَّاقُ على شاطئِ البحرِ دونَ أنْ تخيفَهم الطائراتُ في السماءِ.

سيفتحُ الأطفالُ كتبَهم دونَ أنْ تنطفئَ المصابيحُ فجأةً، وستعودُ الضحكاتُ إلى البيوتِ التي حفظتِ الأنينَ طويلاً.

غزةُ ليستْ مجرَّدَ مكانٍ، بل هي فكرةٌ، وحلمٌ لا يموتُ، وقصَّةٌ لم تُكتَبْ نهايتُها بعدُ. وستبقى تبحثُ عن السلامِ والأمانِ...